صفحات ونفحات

من مذهب ذى النون التصوفى

بقلم
الدكتور محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة

لا يقف ذو النون عند تصنيف المقامات والأحوال وتحليلها على الوجه الذى قدمنا فحسب وإنما هو يتجاوزه إلى شىء آخر لعله أدق من هذا وأعمق . ذلك بأنه يتحدث عن الحال حديثاً هو أدنى ما يكون إلى فلسفته ، فيظهرنا على ما بين الحال والجبر من صلة : فعنده أنه لا يكون للإنسان من الأحوال إلا ما يريده الله له ، وليس الإنسان فى حاجة إلى أن يعلم ما هو هذا الذى اختاره الله له ، إذ كان الله قد علم ما هو كائن ، وهو المكون الأشياء ، وهو الذى يختاره للانسان .

ويتصل السماع بالنفس الإنسانية ، وله فيها عند ذى النون أثر بما تثيره العظة الحسنة والنغمة الطيبة من المعانى التى تؤدى بمن يستشعرونها إلى النعيم الدائم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات ذى النون نفسه أن السماع هو « ورد الحق الذى يهيج القلب حتى يجد الله ، وأن الذين ينصتون إليه بالحق يتحققون ، والذين ينصتون إليه بالنفس يتزندقون . وعلى ما يذهب إليه ذو النون فى السماع عند عامة المريدين يرى بالإبانة عما يعنيه هذا الصوفى من أن من يتبع الحق فى هذا السماع يحصل له الكشف ، على حين أن من يتبع نفسه أو هواه يقع له الحجاب ويعمد إلى التأويل .

ولما كانت العبادات عنصرا هاما من العناصر التى يتألف منها سلوك العبد فى طريقه إلى الله ، وكان الحج فريضة من فرائض الإسلام التى ينبغى أن يأخذ بها الإنسان نفسه ، وكان لهذه الفريضة ولغيرها من الفرائض الأخرى أثرها فى رياضة النفس ومجاهدة الحس وتصفية القلب ، فقد تأول ذو النون مناسك الحج تأويلا يكشف عن معانيها الخفية وآثارها الروحية فى حياة الذين يؤدون هذه المناسك سواء فى علاقتهم بربهم أو بأنفسهم أو بأشباههم : فذو النون يتأول ويعلل الوقوف بالجبل لا بالكعبة بأن ذلك إنما كان لأن الكعبة بيت الله والجبل باب الله ، وإن الله ليوقف القاصدين إليه والوافدين عليه بالباب يتضرعون . ويتأول ويعلل الوقوف بالمشعر الحرام وكيف صار بالحرم ، وذلك بان الله لما أذن للوافدين عليه بالدخول إليه أوقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة ، ولما طال تضرعهم أمرهم بتقديم قربانهم ، وكان هذا القربان تطهيراً لهم من ذنوبهم التى كانت لهم حجابا من دون الله ، وأذن الله لهم بالزيارة على طهارة . وأما أن الصوم مكروه أيام التشريق فذلك ما يؤوله ويعلله ذو النون بأنه راجع إلى أن القوم إنما زاروا الله ، وأنهم فى ضيافته ، ولا ينبغى للضيف أن يصوم عند من أضافه . ويتأول ذو النون التعلق بأستار الكعبة فيكشف عن المعنى الذى ينطوى عليه هذا التعلق فيرى أن مثل الرجل وقد تعلق بأستار الكعبة كمثل الرجل وقد كانت بينه وبين أخيه جناية فتعلق بثوبه واستجدى له ، وتضرع إليه ليهب له جرمه وجنايته : فكل أولئك مناسك الحج فيظهرنا من خلالها على تلك المعانى النفسية والأخلاقية السامية التى ينطوى عليها الحج ، وعلى ما ينبغى أن يقر فى نفوس المؤدين لمناسكه من تلك المعانى . وإن ذا النون ليذكرنا هنا بما يصطنعه الإسماعيلية الباطنية من تأويل وتخريج للمعانى الخفية من الألفاظ الظاهرة ، ومن يدرى فلعله كان متأثراً بهم ، وإن كانت تلك مسألة لا تزال فى حاجة إلى دراسة مقارنة على ضوء المعلومات التاريخية والمؤثرات الداخلية والخارجية فى عصر ذى النون وحياته ومذهبه .

ومهما يكن من شىء فإننا واجدون لدى ذى النون كلاما لعله أن يكون أقرب إلى كلام الإسماعيلية الباطنية فيما يذهبون إليه من حديث على النجباء والدعاة والقائمين بالحجة والأئمة المستورين : فكل أولئك ألفاظ اصطلاحية إسماعيلية نجدها فيما تحدث به ذو النون عن هؤلاء الذين خلصت عبادتهم لله من عبادالله وهذا نصه : إن لله خالصة من عباده ، ونجباء من خلقه ، وصفوة من بريته ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها

فى الملكوت معلقة ، أولئك نجباء الله من عباده ، وأمناء الله فى بلاده ، والدعاة إلى معرفته ، والوسيلة إلى دينه ، هيهات بعدوا وفاتوا ، ووارتهم بطون الأرض وفجاجها على أنه لا تخلو الأرض من قائم فيها بحجته على خلقه لئلا تبطل حجة الله .... أولئك قوم حجبهم الله عن عيون خلقه ، وأخفاهم عن آفات الدنيا وفتنها ... » .

وإذا تركنا هذه الناحية الروحية العامة لمذهب ذى النون الصوفى وما تشتمل عليه من عناصر عملية ، وانتقلنا معه إلى الناحية التيوزوفية الخالصة لهذا المذهب ، ألفينا له نظرية فى المعرفة وأخرى فى المحبة ، وكلتاهما تنطويان على كثير من المعانى الفلسفية التى ظهرت لأول مرة فى تاريخ التصوف الإسلامى عند ذى النون ، وكان ظهورها عنده فى صورة ساذجة بسيطة ، ثم أخذت هذه الصورة تدق وتتضح رويداً رويداً على أيدى من تعاقب بعده من الصوفية بصفة عامة ، حتى تهيأ لها من الدقة والوضوح والتمام أكبر حظ عند الصوفية المتفلسفين ، أو الصوفية الذين وقع التزاوج فى مذاهبهم بين التصوف والفلسفة الإلهية وعلم الكلام من أمثال محيى الدين بن عربى ، وعمر بن الفارض ، ويحيى السهروردى المقتول بصفة خاصة .

(يتبع)